

# صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي ذِي الْحِجَّةِ

## لِلْمَسَاءِ عِشَاءً فِي الْمَدِينَةِ



ضع يدك في  
يد محمد وسر معه  
في الطريق الذي  
شق له باري  
الطبيعة بين السبل  
المتفرقة إلى الحقيقة  
والعدالة والسلامة  
الاجتماعية، وقوة  
الاعتزاز بالقيوم  
على السموات  
والأرض، وشدة

الحرص على اتباع أسلوبه في حفظ الفطرة سليمة من زيغ الحس  
وخداع الهوى وأفن الرأي والأعيب الذكاء... تعلم لك نفسك  
أولاً، والإنسانية ثانياً، والعليمة كلها ثالثاً

فلم يبق لك بد أن تفر إلى هذا الرجل وتستمينه في جهاد  
ما يحتاج الأرض الآن من الشر والتقدير السيء للنفس الإنسانية  
والحياة والاجتماع

ولم يبق لك بد كذلك أن تقيم المثل الأعلى الذي رسمه الله  
في قلب هذا الرجل وعقله وتقذف به على الأمثلة السفلى التي رسمها  
الأنبياء الكذبة في هذا الزمان

نعم إنك لست في قوة هؤلاء الجبابرة، ولكن من هنا ستكون  
المعجزة. معجزة محمد في صرع طوائف الظلم والجبروت والحيوانية  
وتفريق الإنسانية وردّها إلى الوحشية الأولى

إنك عرفت برأيك الحق الذي مع محمد، ونعرف الباطل الذي  
مع هؤلاء، فاعرف بمزمتك وجهدك في أي الصفتين يجب أن تقف.  
ولن يفتر لك رب الحياة القيوم عليها والنيور على اطراد أسلوبه

فيها أن تقف شيطاناً أحرص ترى الإنسانية - أئمن ودائع الله  
في الأرض - تتخطفها الشرور وتتوزعها الأباطيل وتصرفها عن  
وجه الحقيقة والعدالة وتخرب بناء أجسامها وعمرانها بمد  
ما طال وسما

لقد سار شباب كل أمة وراء نبي كاذب يقول لهم: نحن ا  
نحن! ولا أحد غيرنا... فالشمس والهواء والنبراء والزرقاء  
لم تخلق في عرف هؤلاء إلا لهم. وهذا كذب صارخ على الله،  
- وحرب مصرحة مستعلنة لما أراده من تنويع الناس، وشرود  
جامع عجيب من عقل الإنسان ذي الشطحات

ونحن لن نبحت عن رجل آخر نسير وراءه ينمق لنا وننمق له  
ونطلب منه مبادئ أخرى نجد حياتنا، وإنما سنبعث محمدًا في  
نفوسنا ونسير وراءه فيهدف لنا ونهتف معه بما هتفت به السموات  
والأرض وكل قائم حقيق في الفكر والحياة والزمان الأزل الأول  
وفي الأبد الآخر

فإن نصاب بعبادة الأشخاص وتآليه الأفراد. وهذه إحدى  
- نعم الله في محمد على الديمقراطية وميراثها. فقد كفل الله لكل  
نفس حق سيادتها واستقلالها بالعلم والرأي حين خولها القرآن:  
«مأذبة الله في أرضه» وجعل مبادئه واضحة أمامها دائماً: «ولقد  
يسرنا القرآن للذكر، فهل من مدكر» وعلى قدر الامتلاء  
من مبادئ محمد و«تغيب» الأشخاص لها يكون مراكزهم  
من قيادة أمتهم من غير سيادة فردية أو خيلاء عاهرة أو مجد  
شخصي يطلبونه... وإنما هو ظلُّ مجد محمد وقع عليهم فأضنى  
عليهم لونا من ألوانه

إن محمدًا نفسه لم يطلب مجداً ولم يرد ذكر كلمة المجد الإنساني  
على لسانه... وإنما كان يعرف أن المجد لله كله والتوفيق منه. وما كان  
قلبه يبيح له أن يطلب هذه الصفات التي تذهب قيم العظام. وإنما  
كان يذكر كلمة «الواجب» والجهاد له كثيراً...

وإن من طبيعة الرسالة الحمديّة أن تحطم الأناية الفردية  
والكبرياء والخيلاء والادعاء، لأنها تعرف أن هذه الصفات لا يقوم  
معا حق ولا فضيلة ولا دولة ولا سيادة قومية ولا مليّة.  
ولذلك خرج العرب بمد ما وعوا ما في ألواح هذه الرسالة خافض  
الجوانب من الطاعة والرحمة والتواضع في غير ذلة «تتكافأ دماؤهم

ما أخرجته من الأحياء حق الحياة وأدواتها ، ومن روح الحق  
الذي يملأ كل ذرة من ذرات الخليقة  
إن محمداً اتصل ببارئى الفطرة وواضع قوانينها التي لا تتبدل  
وأقى بمنطقه ووضه دائماً أمام عين الإنسان ، حتى لا ينسى  
أخلاق الله في ملابسته لجميع أعمال دنياه ...  
ألم يقل : « تخلقوا بأخلاق الله » ؟ ما أعجب هذا القول !  
وما أعظم ربطه بين النفس الإنسانية والطبيعة ذات القوانين التي  
لا تضل ولا تخلف !

وخلافة الإنسان في الأرض هي أن يمرها على أسلوب الله :  
أى أن يضمن الحياة لكل حي يستحقها ويقم العدل الموزون بين  
العناصر ، ويستعمل قدرته ، ولا يعطلها بالجهل والمرض ...  
ويخلق من طين الأرض وموادها البكر الميتة آلات يلد بها  
صنعة الله ، ويسيرها بعقله وذكائه كما يسير الله الأحياء بروحه  
والهامه ... على شريطة ألا يخرجها ذلك عن نطاق الطبيعة فينسى  
أنه من أبنائها وأشياؤها ؛ ولكنه دائماً يضل وينسى هذا ، لأنه  
ذو اختيار وذكاء وشطحات تباعد بينه وبين أسلوب الطبيعة ،  
وفتنته من هنا ... فهو يخلق بذكائه جواً صناعياً حوله يجعله  
منفصلاً عن سير الحياة بما عدها من الأحياء ، ويجعل بين عالمها  
وعالمه حاجزاً ! ...

فلو أنه ملك فكره وقدرته حين بدء سير حياته العقلية ، ونظر  
نظرة في النجوم : نجوم السماء ونجوم الأرض ، وقال كلمة للقرآن  
التي هي معنى الإسلام : « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات  
والأرض حنيفاً » ومضى مع مواكب الطبيعة حادياً لها بعقله  
وبيانه ، نائباً عنها في الدلق باسم ربها وربها ... إذاً لو فحنت أمامه  
طريق الحياة وتراءت له غايتها مما يمت فيه الطمانينة واليقين والصبر  
وحب العمل لها ولما بعدها . وللنطق البسيط المأخوذ من هذه  
النظرة الواضحة يقول : مادام الناس متفرقين مختلفين في الفطرة  
ولهم حق الحياة ، فمن الجهل والظلم أن أحقر جنساً غير جنسى  
أو احتكر الحياة لنفسى وحدها مادام كل إنسان لم يخلق نفسه ...  
ومن حسن الحظ أن هذه النظرة الأولية الطبيعية تلتقي مع النظرة  
الناشئة من تتبع الميراث الصناعي لأساليب حكم الجماعة الإنسانية :  
أى مع أهم مخلفات الحياة الديمقراطية التي ارتاح لها الإنسان  
السياسي : ألا وهي حق الحياة وحرية الكل فرداً لكل جماعة ...

ويسمى بذمتهم أديانهم ، قد يركب عبدهم على دابة والسيد يسير بجواره .  
وقد يضع ابن البيضاء لابن الموداء خده على التراب استغفاراً  
من تمييزه مرة بسواده وتوكيداً لاعتذاره ...

لقد أوشك أن يختفى اسم الله عن إنسانية هذا العصر ، ويختفى  
ما كان يحيط بهذا الإسم من عالم للطهر والخير والصبر وانتظار  
الجزاء من وجهه ذى الجلال ، ويظهر وجه الشيطان والإنسان  
وحدهما . فأبطال الدنيا الحاضرة يخفون اسم الله عن أعين الفطمان  
التي أسلت قيادها لهم ، وهم يجحدون بذلك كل جهاد أولى العزم  
من الرسل والمصلحين السابقين الذين أوصلوا الإنسانية إلى  
ما وصلت إليه ، ويبدعون فلسفة أنانية ، ولا يرون من حقائق  
الحياة العليا إلا القوة

إنهم شككوا الناس في رحمة الله وعدله وأوشكوا أن يربوهم  
في وجوده ! وبذلك خيلهم وصرفهم عن رؤية أول حق يجب  
أن يرى ...

لقد يتساءل بعض الذين لم يتصلوا بأصول الحياة : أين  
رحمة الله في حرب مثل الحرب العظمى أو هذه الحرب التي توشك  
أن تكون أعظم ؟ وأين قيمة الإنسانية التي تزعم لها القداسة  
مع أن بعضها ينظر للبعض الآخر باحتقار ؟ إن معنى الإنسانية  
لم يتحقق حتى نترف لها بالقداسة . إن الأبيض يدوس الأسود ،  
والأحمر يحتقر الأصفر ، والأصفر يحتقر على الأبيض ، وهكذا ...  
فهي إلى الآن لم تترف لنفسها بحق ، ولم تعرف وضميتها في الحياة ،  
ولم تدر غايتها فيها ، ولم تتفق على كلمة سواء فيما بينها . وهي  
لا تزال في بلبلة من آرائها ومعتقداتها ومذاهبها . وهي لا تزال  
تميش بمنطق الأحرار والفتيات ، ولم تغلق بمد عن فخراتها  
وغدراتها وغفلاتها عن عالم السمو والدم الذي ما خلقت إلا له .  
وهذا للتساؤل وهذا التشكك لا جواب له ولا شفاء منه  
إلا في « الكتاب » الذي طبع اسم الله على كل شيء وفي كل  
وقت حتى يرى للناس به الحق دائماً ولا ينسوه . ولن يستقر كل  
شيء من عالم الآفاق وعالم الأنفس في مكانه إلا إذا طبع اسم الله  
عليه . وعيشا يطلب مصلح استقرار النفوس ما لم يكن هذا أدانته  
الأولى . وهذه هي طريقة القرآن في كل آية : أن يُدبّلها بذكر  
جانب من صفات الله وشؤونه

إن منطق الإسلام يستمد من قوانين الفطرة الضامنة لكل

ومن حسن الحظ أيضاً أن حراس الديمقراطية الآن - وإن كانوا أنقص من السابقين بدرجة عظيمة في تقديرهم معنى المساواة والحرية والرحمة والأخوة الإنسانية - مستعدون أن يسموا دعوة الإسلام لها وأن يأخذوا أصواتنا القديمة والحديثة في الدعوة إليها والدفاع عنها ليضموها إلى أصواتهم وهم يحاربون أعداءهم نعم نحن نفتقر عنهم في التقدير وفي النأي، فنحن نطلب الحق والحرية والعدالة لثباتها ولذلة إحساس نفوسنا بسموها إحساساً مستنداً على حرارة الإيمان ويقين العقيدة الدينية، وهم يطلبونها ويقدرونها لحفظ ما في أيديهم من الحطام وأعراض الدنيا غير أننا يجب أن ننهز هذه الفرصة لندخل بمبادئ محمد إلى قلوب حراس الديمقراطية، فلعل ما هم فيه من الخن والنكبات يجعلهم يقبلون على الخير والحق لذات الخير والحق ...

وما دما نتمتع على إعانة رب الحياة الذي نتمتع من قوته وقهره للدفاع عن أسلوبه في الطبيعة وحفظ فطرته كما أرادها؛ فإننا واثقون أنه سيفتح لنا ثغراً في حياة الغربيين يتغذ منها نوره الذي وضع مشعاله الأخير في يد محمد

وأحس أن هذا الزمان يتمخض عن انقلاب خطير إما إلى عصر ارتداد وانتكاس وجاهلية جهلاء ... وإما إلى عصر سمو حقيقي للإنسانية. فملي الذين وهبوا أنفسهم للحق الذي عرفوه أن يأخذوا مكانهم في الصف الذي اختاروه: صف الطبيعة ورب الطبيعة في هذه المواقف الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر

إن قلب الإنسان بفعل الأعاجيب إذا ما اتصل بالخير ... إن المرصد الذي يرصد إرادة القدر ووجهاته حين يريد رب القدر أن يفرق أمراً حكماً أو يبرمه

إنه مذبح أرضي يذبح النداء العلوي المتجدد ...

\*\*\*

ونريد من الذين لا يعرفون بالديانات ولا يؤمنون بالنبي ولكنهم مألومون من حالة الشر التي في الأرض الآن، أن يقفوا في صف محمد على أنه بطل يمثل آراءهم وأصدق تعليل وأقواه وإن في مبادئه عناصر بشرية خالصة مستمدة من طبيعة الأرض لا من روح السماء

فليمشوا بعبادته هذه فقط، وليتركوا مبادئه الساهية للذين في قلوبهم نوافذ ترى مالا تراه للقلوب الضعيفة

ولعل للنصر الذي يلاقونه من السير وراء محمد يرشدكم إلى أن فيه جانباً آخر، فيحملهم ذلك على الإيمان بمصادر وحيه جميعها وأؤكد أن ما فيه من السمور المتفرد سيحمل كل منصف على أن يرى تفرد قلبه وعقله بصفات لم يتصف بها أحد. وهذا أول درجات الاعتراف له بالاتصال بالم خارج عن نطاق الأرض ما دام قد تفرد بين أبطال الدنيا الذين نظروا إلى الحياة من جهة واحدة، بأن قلبه وسع كل حيوات الناس، واستوعب قضاياهم، وأتى من الله بصميم الحق الذي لا يتبدل في الأمم والأمكنة والأزمان.

ولا يعرف قدر محمد رسول الله وطبيعة تفرد بين البشر إلا الذي أغرم بقرامة تاريخ أبطال الدنيا. إنه لن يجد قلباً ولا عقلاً وحياً ما وعى عقله وقلبه من الحق الصادق والحكمة البالغة ووسائل إمساك الإنسانية على حدود المدالة

وكثيراً ما أفترض أني نشأت غير مسلم، وأنجيل حياتي العقلية على هذا الفرض، وقد أصابها ما يصيب أي عقل باحث من الشكوك وآثار استعراض الآراء والمعتقدات، فأجدني حينئذ كأعمى يختبط في صحراء، كل ما لديه من الإيمان نأج من شعوره بالهجز المطلق أمام جيروت الكون وإبهامه وإصراره على إخفاء ما وراءه من أسرار ... فإذا عساه أن يفعل إزاء هذا غير البكاء الدائم من عينيه المغلقتين المظلمتين إن كان محسناً بالحياة مقدراً لمصيرها المجهول ...؟ وغير اللعن الدائم للسماوات والسمي بالإفساد في الأرض إن كان بائساً بالإحساس بالحياة، غافلاً عن مصيرها ...؟ وغير اللبث بضم: بشرى أو حجري أو شجر أو شمس أو قمر أو ثمان أو بقر إن كان محدود النفس جبان الرأي؟ أما الإيمان المشرق الواضح الذي يميز كل شيء ويضعه في مكانه، ويعرف رب الكون بما يشبع رغبات العقل من غير إفساد لانتلاف العقيدة مع العلم ومع الفلسفة ويضع للإنسان غاية معروفة للحياة ... فذلك ما كنت أقفده لو لم أنشأ مسلماً

وهكذا يتبرغ الفجر العقلي الجديد ل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويستحول حب المؤمنين به الباحثين فيه إلى حب عقلي وتقدير بمقاييس موضوعية لا ذاتية إذ عرفوا أن رسالته لا تضارها رسالة حديثة أو قديمة على كثرة تقلب الدنيا في المعتقدات والمذاهب والآراء.

عبد النعم ههوف

(القاهرة)